

فعل الاستخدام في الوسط الافتراضي

The act of use in virtual environment

ساكر اسيا*1، مالفى عبد القادر 2

جامعة عبد الحميد ابن باديس- مستغانم(الجزائر)، assia.saker.etu@univ-mosta.dz

جامعة عبد الحميد ابن باديس- مستغانم(الجزائر)، abdelkader.malfi@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2021/06/03

تاريخ القبول: 2021/05/31

تاريخ الاستلام: 2021/04/21

ملخص:

جاء الانترنت ضمن سياق تكنولوجيا الاتصال وجاءت استخداماته كإمتداد لاستخدامات وسائط الإتصال السابقة، غير أن تجربة استخدام الانترنت أظهرت أن العلاقة التي تربط المستخدم بالوسط الرقمي تحمل معطيات أكثر من تلك التي تربطه بوسائط سابقة، مما أدى إلى إعادة التفكير في طبيعة الوسط الذي يولده الانترنت بل وفي الطبيعة السوسيولوجية لفعل الإستخدام، حيث ارتبك مفهومه هو الآخر بعد أن لوحظت أوجه جديدة لسلوك المستخدم ورؤيته لذاته داخل الفضاء الافتراضي الذي يصبو إلى محاكاة الواقع ويدفع بالوسط التقني والاجتماعي إلى التداخل أكثر فأكثر. ول معالجة مثل هذا التصور استخمننا منهجا يمكننا من وصف و تحليل تطورات فعل الاستخدام بالوسط الافتراضي، حيث توصلنا إلى فهم الكيفية التي يعالج بها المستخدم واقعه من داخل الوسط الافتراضي .

الكلمات المفتاحية: فعل الاستخدام، الوسط التقني، الإنترنت، العالم الافتراضي ،

Abstract:

The Internet has emerged in the context of communication technologies, and its use has naturally been an extension of the uses of the preceding technological media, but the user's experience showed the existence of many more parameters and data involved more in the user / internet relationship. This leads to reconsider the nature of Internet space, and the sociological act of its use. The concept overlaps due to the diverse changes in the user's behaviour which tends to imitate reality and forces technology to further intermingle with society. To redress this concept, we used a descriptive method to observe the development of

* المؤلف المرسل : ساكر أسيا

use within the virtual environment. Findings show how the user manages his reality from within the virtual environment.

Keywords : Internet -Technical environment - Uses -Virtual space.

1. مقدمة:

أكدت العديد من الدراسات والبحوث بما فيها نظرية ماكلوهان أن لوسائل الاتصال المتجددة تأثيرا على حياة الفرد المجتمع. و من ثم تدخل العامل التقني في تعديل طرق استيعاب الفرد لمعطيات محيطه، حيث لا يتوقف الأمر فقط على اكتساب مهارات جديدة في استخدام وسائل الحديثة لتكنولوجيات الاتصال ، بل بإدماج الوسيلة كآلة ومنطق إشتغال ضمن فضاء الإدراك للمستخدم، وقد سعى تيار سوسيولوجيا الاستخدامات إلى تشخيص طبيعة وأبعاد العلاقة التي تربط التقنية بمستخدميها، باعتبار هذا الأخير عنصرا فاعلا ومبدعا في علاقته بالأداة، داعما بذلك نظرية تلازم المتغيرين التكنولوجي والاجتماعي وتأثير بعضهما على بعض.

غير أن ظهور الانترنت كحدث تكنولوجي ثوري، برز على شكل شبكة جمعت بين الخصائص الاتصالية و الإعلامية لكل سابقتها من التقنيات، فهي تتطلب إكتساب المهارات والمعرفة التقنية، وكذلك حضور المستخدم بكل أبعاده الشخصية، و الذهنية والنفسية، ذلك أن إستخدام الشبكة يتميز بطبيعة تشاركية تتطلب الاندماج الجزئي أو الكلي مع العالم الافتراضي.

لا يكتفي الانترنت بالرغم من تصنيفه ضمن الوسائل التكنولوجية الحديثة بتقديم خدمات وبرامج للاستهلاك، بل يشترط على المستخدم الانخراط بذاته في عالم إفتراضي سواء بالطلب الصريح كما هو الشأن في مواقع التواصل الاجتماعي، أو بالتدريج من خلال تقديم الشبكة لخدمات مشخصة تتماشى مع إحتياجاته وميولاته، وبالتالي بات من الصعب

الإكتفاء بتصنيف شبكة الانترنت ضمن الوسائط الاتصالية الجديدة بالنظر لطبيعتها المزدوجة؛ المادية/الافتراضية، الجماهيرية/الفردية، المجانية/التجارية...الخ

وبناء على ما سبق نتساءل في هذه الورقة عن طبيعة علاقة الاستخدام التي تتشكل بين الفرد والانترنت الذي يوفر له عالما افتراضيا و يلبي احتياجاته المادية و النفسية معا، فأى عالم إفتراضي يوفره الأنترنت للمستخدم ؟ و بأية كيفية يعالج واقعه انطلاقا منه؟
ولمعالجة هذا الاشكال، نعتمد في الوصف والتحليل المنهج الوصفي وهو المنهج الأكثر شيوعا في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن طبيعة الموضوع تفرض ذلك. فخاصية الموضوع المعالج نظري أكثر مما هو تطبيقي، ولذلك سوف نستخدم آليات معيارية تمكننا من توضيح المفاهيم، خاصة تلك المرتبطة بالفعل الصادر عن المستخدم وكيفية معالجة واقعه الذي يتجلى خارج حدود ادراكاته، بل و يؤثر على رؤيته لذاته داخل فضاء رقمي يتحكم فيه عن طريق الاستخدام الواعي الذي أضحي يجنح أكثر فأكثر إلى فعل لا شعوري متأثرا بالآليات الخدماتية التي تضعها المنصات الرقمية في متناوله.

فنتير لأجل ذلك بعض المفاهيم للإلمام بأنماط الإستخدامات الإجتماعية للوسائل التكنولوجية كالتمثلات الاجتماعية ضمن منطق الاستخدام، وظاهرة التملك، مع إلقاء الضوء على عملية معالجة المعلومات وبناء المعاني في فهم الواقع بالاعتماد أكثر فأكثر على التقنية، ثم الفصل في طبيعة شبكة الإنترنت وصولا إلى إثارة رهانات استخدام مواقع التواصل الاجتماعي، أين تتجلى إمكانية الانتقال من مرحلة الوعي بالاستخدام إلى مرحلة لا يدرك فيها المستخدم مدى تحكم الوسط التقني في نشاطه الذهني بل وفي كيانه الاجتماعي.

2. أنماط استخدامات التكنولوجيا الاتصال

لقد انتبه الباحثون لأهمية نشاط الإستخدام من حيث تجاوزه لمرحلة الاستعمال الأداتي في سبعينات القرن الماضي، وخاصة بعد ظهور نظرية الاستخدامات و الاشباكات، و التي كشفت عن الدور النشط للمستخدم، ومن ثَمَّ ظهر البعد الاجتماعي لمفهوم الاستخدام حيث اعتبره جملة من الباحثين كنظام سلوكيات ينتج عن تفاعل الإنسان مع

التقنية، فيعرفه Pierre Chambat بأنه تلك التمثلات و القيم التي تتولد حول استخدام التقنية، أي الطريقة التي يستوعبون بها الابداع التقني و يعيشونه، وكذا المعنى الذي يعطونه له (Andonova، 2012). ويقول Christian Delacroix أن الاستخدامات الاجتماعية هي طرق استخدام تتجلى مع التكرار في شكل عادات مدمجة بشكل كافٍ في الحياة اليومية، لتندرج ضمن الممارسات الثقافية الموجودة في المجتمع، وهي تتطور وتقاوم ممارسات أخرى منافسة لها (Pélissier و Badillo، 2015).

ولعل من أبرز الأعمال التي سلطت الضوء على الدور النشط للمستخدم، هي تلك التي قام بها جاك بريو Jacques Perriault بعد تسجيل تحولات في مسار الإستخدام الأصلي للأداة والتي تعقب كل ابتكار تقني جديد، فيولي بريو دورا مستقلا للمستخدم في التفاوض وتقبل وتموقع الأداة في فضائه (Boenisch و Perriault، 2012، الصفحات 503-504) ضمن ما أسماه بـ "منطق الاستخدام".

يلجأ Perriault إلى ربط طبيعة الإستخدام بالتمثلات الاجتماعية بشكل يُجمع فيه المستخدمون على إعطاء موقعٍ للوسيلة التقنية في فضائهم الاجتماعي، وقد رصد للعلاقة التي تربط فعل الاستخدام بالتمثلات الاجتماعية أربعة (04) عوامل: أولا، طريقة تمثل الوسيلة حسب ثقافة المستخدم، ثانيا المعيار الاجتماعي الذي يستخدمه المجتمع في تصنيف الأداة نفسها، ثالثا تحديد مكانة استخدام الوسيلة التقنية في حياة الفرد والمجتمع أي الدور النهائي الذي يُسند للفعل ذاته، و رابعا تراكمات التجربة التقنية في حد ذاتها والتي تؤدي إلى تطور المعرفة ومهارات الاستخدام و من ثم إمكانية نقل وتطبيق نماذج هذه المعارف إلى ميادين وسياقات جديدة (Rojas، 2013، صفحة 161).

و تضاف إلى ذلك مقارنة التملك والتي تُسلط الضوء على دور المستخدم في تشكيل علاقته مع الأداة، حيث تُعرف ظاهرة التملك بأنها سيرورة التكيف الذي يعمد إليه المستخدم لإرساء التقنية في فضائه الحياتي، فيذكر Proulx أنها تتطلب التحكم التقني

والحد الأدنى من المعرفة ليتمكن من إدماج الوسيلة في حياته اليومية بالإضافة إلى ميوله إلى التماس إمكانية الإبداع أثناء الاستخدام (Peraya، 1998، صفحة 182).

ظاهرة التملك هي عملية معقدة تتطلب وقتاً طويلاً للاستقرار ضمن عملية الاستخدام المنتظم للتقنية، فهي لا تقتصر على تبني الإبداع التقني، فالتملك لا يتولد فقط لكون الأداة فعالة ومتطورة علمياً فحسب، ولا في كونها حتمية تجارية (ثمناً مناسباً)، وإنما تتوقف الظاهرة على البعد الرمزي الذي يمنحه المستخدم للتقنية أي لطريقة تملكه للأداة (G.Gaglio، 2003، صفحة 5)، وإن هذه الصورة الرمزية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياق الثقافي والاجتماعي وما يتمثله المستخدم بخصوص الأداة، وهو الفعل الذي يجعل الأشياء محسوسة في فضاء الإدراكي، ويبنيه ذهنياً بواسطة تراكم المعلومات المكتسبة من تجاربه الفردية والجماعية، والتي يتقاسمها مع غيره من خلال تفاعلاته اليومية.

كما عمد من جهة أخرى علماء النفس التربوي على تفسير كيفية استبطان المستخدم لطرق جديدة في معالجة المعلومات عن طريق الخصائص التقنية للوسائط التكنولوجية، حيث يتم إستيعاب الواقع من خلال نظام التمثيلات الذي تُنشئه تكنولوجيات الاتصال، وهذا ما يوضحه دانيال برايا Daniel Peraya من خلال أمثلة يقدمها، فيقول أننا لا نرى العظام التي تكشفها لنا أشعة التصوير الطبي ولكننا نثق فيها ونبني فهمنا اللاحق عليها، كما أننا لا نعيش في أقل من دقيقة تعاقب الفصول وبالرغم من ذلك نتقبل فيديو مسرّع لها على أساس أنه الواقع (Peraya، 1998، صفحة 172). فنحن نبني فهمنا للواقع بعد أن نكون قد إستبطنا المنطق التقني لإشتغال الأداة التكنولوجية لتصبح المعلومة مُمثّلة كلياً من طرف النظام التكنولوجي و تكاد لا تتجزأ من طرق الفهم الجديدة، فتندمج بذلك التقنية في سيرورة عملية بناء المعاني.

قد يمثل الوسيط التكنولوجي ذلك الحامل الفائق لمعطيات الواقع، يعكسها بل ويطور صورتها ويحسن من فاعليتها بمباركة الإنسان، كما يمكنه في المقابل إختزال المعطيات الواقعية، وإصطفاء أساليب معينة لمعالجتها، وذلك كلما تمكن الوسيط من إحتواء

مستخدمه عن طريق توفير له وسطا يلبي حاجاته الفردية و الاجتماعية والتي تسمح له بتحقيق ذاته.

3. استخدام الانترنت

يواجه الباحث في مرحلة أو أخرى أثناء تحليله للإنتاج الرقمي على شبكة الانترنت هاجس مدى واقعية وأصالة Authenticité الفضاء الافتراضي الذي يولده الإنترنت، مما يثير تساؤل أساسي ذو طبيعة منهجية، فكيف يمكن التحقق من مطابقة نتائج تحليل المنتج الواقعي مع ذلك الذي يصدر من وراء الشاشة؟ وماهي درجة انخراط المستخدم في الخطاب الذي يُنتجه عبر الشبكة؟ مما يلقي الضوء على واقع المسافة بين العالمين الواقعي والافتراضي، و يتساءل كذلك ما إن كانت تكنولوجيا الانترنت مجرد وسيط يسمح بحركية المعلومات، أم أنها تسمح بالتنقل بين الواقعي والرقمي؟

وأثناء التنقل بين العالمين تتعرض العمليات العقلية للمستخدم كالفهم والتقييم والتخزين إلى تحولات ذات طبيعة ادراكية cognitif مُولدة بذلك تمثلات جديدة مصدرها تكنولوجيا بحث، ولعل مصدر هذا الارتباك ناتج عن مشكلة ابستمولوجية بالدرجة الأولى متعلقة بتصنيف وتحديد طبيعة شبكة الانترنت في حد ذاتها، فقد يتطلب ذلك الفصل في ماهيتها ومساحاتها الوظيفية لنتمكن من فهم منطق الاستخدام الخاص بنظام الانترنت.

1.3 الانترنت كوسط تقني

تطرح عدة دراسات مسألة طبيعة الانترنت هل هي أداة تقنية أم برامج تقنية أم وسيلة إعلامية تُصنف ضمن قائمة الوسائط الجديدة؟ فدُشِر أدبيات فلسفة التقنية إلى أن الظاهرة الرقمية ليست حدث تقني فحسب بل وفلسفي أيضا في إشارة إلى فكر غاستون باشلار حول توليد العلم للفلسفة (Bachelard، 1993، صفحة 61) حيث يعتبر التقنية سابقة

وصناعة للظاهرة العلمية والنظرية و لا يمكن الاستدلال عليها بدون الأداة، فمن هذا المنطلق تُعتبر البنية التقنية للانترنت مركبها الأهم بالإضافة إلى المعلوماتية، و هي ترسانة المعطيات التي تدير النشاط الرقمي و شبكة الإتصال، و يُسمى جاك ايلول Jacques Ellul في مؤلفه "النظام التقني le système technicien " هذا النوع من النشاط بـ "النسق التقني"، وهو النظام المركب الذي تتضافر فيه عدة تقنيات وتساهم في إنتاج موحد موجه للإستخدام، و يضيف ستيفان فيال بأن النسق هو "أعلى مستوى للتركيب التقني....، والشكل الاجتماعي المجسد للظاهرة التقنية....، إنه يُعد بهذا المعنى بنية اجتماعية أساسية تساهم في ما يُكون هوية حقبة ما" (فيال، 2018، صفحة 38).

و تؤكد Estrella Rojas إلى أن أغلب الباحثين يميلون إلى اعتبار الانترنت كوسط تقني أكثر من كونه أداة تقنية، وتعوز السبب في ذلك إلى أن الأداة تُستعمل لغرض معين ويتم وضعها جانبا عند تحقيقه، فهي مجرد حامل تُعرف بمدخلاتها ومخرجاتها، بينما يستمر الوسط في تنشيط حياتنا اليومية بل وتحديد نتائج نشاطنا بحيث نتفاعل فيه ونفكر معا (Rojas، 2013، صفحة 158)، ويميز باحثون من تخصصات مختلفة مثل الفيلسوف Merleau

Ponty، والباحث في علم النفس البيئي J.J.Gibson بالاستناد على نظرية باحث البيولوجيا Jacob Von Uexküll، بين الوسط والمحيط أو البيئة، باعتبار الوسط يتشكل فقط من العناصر الحيوية المحددة لنشاط الإنسان، بينما تشمل البيئة العناصر الطبيعية كاملة التي يتقاسمها جميع الكائنات، بالإضافة إلى ان مفهوم الوسط يشير إلى العلاقة التي تنشأ بين الفرد كوحدة نفسية و التقنية، ويشمل كل ما يتولد حول التقنية من بيئة مؤسسة و تابعة لها في نفس الوقت، و في هذا الاتجاه يؤكد الفيلسوف الفرنسي Gilbert Simondon الذي عايش بدايات الثورة التكنولوجية في نهاية القرن الماضي، أن استمرارية الوسط التقني مرهونة بنشاط الإنسان وهذا ما يسميه بـ "الوسط التقني المرتبط" milieu technique associé.

و يُقدم برنارد ستيغلر Bernard Stiegler مقارنته النفسية "للوّسط التقني المرتبط" الذي لا يُعد فقط امتداد لحياة الإنسان وفكره و جسده وحواسه بل يعتبره الذاكرة-التابعة، وهو ما يختلف عن المحيط الذي يحيط بالفرد، حيث يتعلق الوسط بظاهرة تحقق التفرد l'individuation وهو مفهوم ينتهي إلى مجال علم النفس، ويقصد به كارل يونغ السيرورة الطبيعية لعملية البناء النفسي للفرد عبر مراحل حياته بنفسية مستقلة عن النفسية الجماعية، والتي تبدأ بمرحلة تأقلم الإنسان مع ما يُطلب منه بحثاً عن الأمان النفسي حتى وإن تخطى عن حقيقته، فيندمج مع محيطه في عملية اتصال وتشكّل في آن واحد، لينتهي في مرحلة ما، بإيجاد وضع متوازن (Rojas، 2013، صفحة 158)، وقد تستجيب علاقة المستخدم بشبكة الانترنت لمفهوم "الوسط التقني المرتبط"، حيث يبني الفرد تلك العلاقة بصفة تدريجية عن طريق نشاطه على الشبكة من خلال خاصية التفاعلية، مروراً بمتطلبات مراحل التأقلم والبحث عن التوازنات النفسية لعملية الاتصال هذه، مما يساهم من جهة في تغذية الشبكة و استمراريتها، ومن جهة أخرى يسمح له ببناء شخصيته الجديدة داخلها.

4. استخدام مواقع التواصل الاجتماعي

قد تمثل مواقع التواصل الاجتماعي أكثر المساحات الخدمائية التي تُمكن الذات من التجلي حيث أن الإمكانيات التعبيرية التي تتيحها هذه المواقع تتجاوز عملية بلوغ وتبليغ المعلومات، بل تتطلب إنخراط المستخدم في الوسط التقني والإفصاح عن ذاته بدرجات متفاوتة تبعاً لسياسات المواقع والآليات التي تميز كل تطبيق، وكذا حسب استعداداته النفسية والاجتماعية، و تذهب Allard إلى أبعد من ذلك عندما تعتبر الأنظمة التعبيرية التي تقترحها هذه المنصات الاجتماعية كتكنولوجيا مخصصة لخدمة ذوات الأفراد، وأن الآليات المقترحة عليهم هي من أجل تثبيت هوياتهم أو تعديلها أو تحويل مساراتها إلى أهداف معينة (Denouël and co، 2014، صفحة 69)، وهو الاتجاه الذي يعطي للمواقع الاجتماعية سلطة كبيرة في استدراج الأفراد وإلحاق هوياتهم الواقعية بالعالم الافتراضي عن طريق الاستجابة إلى احتياجاتهم وتطلعاتهم النفسية والاجتماعية، وقد قدمت سوزان غلينفيلد عرضاً

مختصرا حول شركة تجارية تقع في سان فرانسيسكو تدعى شركة كلاوت Klout، والتي يقوم نشاطها على تحليل وسائل التواصل الاجتماعي، ودراسة تأثير المستخدمين النشطين على الشبكة، وذلك بقياس مدى إتساع شبكات متابعيهم و حجم التفاعلات ومضامينها، لتكافيء المستخدم الأكثر نشاطا وتفاعلا مع أكبر عدد من "الأصدقاء"، و تذكر غرينفيلد بأنه بالرغم من أن الهدف التجاري غير معلن، فهذا لا ينفي أن هناك صفقة تحدث بين الشركة والمستخدم النشط، مفادها أن يتحصل صاحب الحساب على جوائز وخصومات أو منتجات مجانية مقابل جمع أكبر عدد من "الأصدقاء" حول مضامين معينة، فيكون ناجحا كلما طور علاقات شخصية عبر الشبكة وازدادت شهرته، مما يؤدي به إلى البحث المستمر عن أدوار جديدة ومثيرة تجلب إهتمام الجمهور وتُحثُّه على التفاعل أكثر فأكثر (غرينفيلد، 2017، الصفحات 145-146).

إن هذا النوع من التفاعل يتجاوز العقد التجاري - معلنا كان أو ضمنيا- إلى رهن قيمة الفرد وكيانه بعدد هؤلاء الذين يتفاعلون مع النشاط الذي يقدمه لهم، فتُقاس بذلك أهميته كشخص بعددهم وديناميكيتهم حوله، مما يجعل ذاته تحت جباية التأقلم مع ما هو منتظر منه "أن يكون" وليس مع "ما يفعل" أي ما يُنتجه من مضامين، فترهن قيمته الاجتماعية في سوق افتراضية تتاجر بالذوات بدل السلع، ومن المرجح أن يحدث للمستخدم هذا الاستدراج بطريقة لاشعورية حيث لا يدرك مدى مساهمة التطبيق في توليد الاعتراف الاجتماعي الذي يحضى به كقيمة افتراضية. ومدى نزوعه التدريجي نحو تكوين ذات فعلية* جديدة من وراء الشاشة، تستجيب في النهاية إلى أغراض تجارية وسياسية، وتتم بطريقة افتراضية تماما.

5. الوسط الافتراضي

إن تزايد ارتباط نشاط الفرد بالحاسوب و شبكة الانترنت يجعلنا نتساءل عن مدى واقعية المنتج الافتراضي، إذ تُحيل كلمة "الافتراضي" بمفهومه المتداول بين المستخدمين إلى

النشاط الذي يتم عبر شاشة الحاسوب، ويطرح هذا التعريف المبسط عدة تساؤلات حول حقيقة ومدى واقعية كل ما يُدرج تحت مسمى "الافتراضي".

ولعل مصطلح افتراضي يجد أصوله الفلسفية عند أرسطو في مفهومي "الفعل والقوة"، إذ توجد الأشياء بالنسبة له إما بالفعل أو بالقوة، بالفعل هو تحقق النشاط الظاهر فعلياً، أما تواجد الشيء بالقوة فهو كيانه في حالته الكامنة، و كلاهما موجودان، أحدهما يفصح عن نفسه و الآخر يظل محجوباً بالرغم من وجوده الفعلي، فقد ورد عن اندريه لالاند أن " الافتراضي هو ما لا يوجد إلا بالقوة لا بالفعل " (فيال، 2018، صفحة 142)، ويدعمه Pierre Levy بإعتباره بناء فعلي غير مُفعل ظاهرياً، أي محجوب الصورة والحركة وهو ما يختلف عن المخيال، فهذا الأخير يوجِّدُ الذهن ليظل بداخله ولا يتعدى إلى الواقع، بينما يميل الافتراضي إلى كونه واقعا ممكنا قابل للتفعيل (Kaufmann، 1996، الصفحات 171-174). دون ما ضمان لتحقيق ذلك.

أما المعنى التقني للكلمة، فقد حاول مفكرو الرقميات منذ الساعات الأولى في الربط بين المعنى الفلسفي الإجمالي للكلمة والجانب التقني فيما يسمى بـ "المحاكاة المعلوماتية" وهو مستوى متقدم من عمليات الحساب الخوارزمي للحواسيب، إذ انتقل خلالها الاستخدام إلى التعامل مع واجهة الحاسوب كمنتج مُجهز أكثر لمحاكاة الواقع، فهو يتجاوز النشاطات اليومية البسيطة كتصنيف الملفات وبرمجة المواعيد اليومية على مكتب الحاسوب إلى خلق عوالم افتراضية يتفاعل فيها المستخدمون ويعيشون حياتهم فيها عن طريق التبادلات الرقمية، إذ يقول فيليب كيو أن "العالم الافتراضي هو قاعدة معطيات بيانية تفاعلية يمكن استقصاؤها ورؤيتها في الزمن الواقعي على شكل صور مركبة ثلاثية الابعاد تمنحنا بطريقة ما الشعور بالانغماس الكلي في الصورة، فالفضاء الافتراضي في أكثر أشكاله تعقيدا هو فضاء تركيبى حقيقي يمكن أن نشعر فيه بأننا ننقل داخله ماديا" (فيال، 2018، صفحة 156).

تناول الكثير من الفلاسفة والباحثين مثل Gilles Deleuze، Simondon، Pierre Levy، Michel Serres، Jean Baudrillard وآخرون، ثنائية (الافتراضي/الواقعي)، لتنقسم مسارات التفكير إلى تيار يحمل قلق ناتج عن التقنية ذاتها و يندد بتأثيراتها التي تسلب الانسان طبيعته الانسانية، حيث يقول في هذا الصدد جاك ايلول الذي لا يخفي إدانته الإيديولوجية للتقنية بأنها تمحو مبدأ الواقع لأنها تُظهر اللاواقع كواقع، و هي تُفقد الإنسان وعيه بحقيقته، وتُدخله في مرحلة بلادة تقنية، و هي إدانة تصدر عن قلق أخلاقي بالدرجة الأولى، بينما يقدم سيموندون وجهة نظر تحُد من رهاب التكنولوجيا، ذلك أن الثقافة التقنية بالنسبة إليه هي تلك البُنى التي تُبنى بناء علميا و عقلائي بالموازاة مع فعل الاستخدام، فيقول أن للإنسان القدرة على التمييز وتقدير عمق البعد الإنساني لمرحلة الرقميات (فيال، 2018، صفحة 10).

يستعيد Stigler في هذا الشأن قلقه من تكنولوجيا الإنترنت، حيث يخشى ذوبان ذهنية الإنسان في شبكة الإنترنت ولكنه يعود في نهاية تحليله إلى القول بأنه لا ينبغي ان نُقيم مقارنة بين الحياة الواقعية و الافتراضية، و لا مواجهة الوسط التقني مع الوسط الإجتماعي، بل ينبغي مقارنة نوع العلاقة التي تنشأ بين الفرد والإنترنت، فتكون علاقة غير مسؤولة عندما يتجاهل المستخدم دور الوسائط التقنية تماما مثل السمكة التي لا تدرك انها تعيش في الماء، حيث يصبح الإنسان لا يرى انه في وسط تقني بل يرى العالم من خلاله، فتتميز التقنية هنا بنسيان الآلة على حساب وظيفتها، ونسيان الزمن الواقعي على حساب زمن العرض الذي تعرضه الشاشة (Rojas، 2013، الصفحات 158-160)

و تبدو طبيعة العلاقة التي تنشأ بين الإنسان والانترنت مختلفة عن تلك التي تنشأ بينه وبين أي تكنولوجيا سبقتها نتيجة اختلاف طبيعة تكنولوجيا الإنترنت التي أضحت تغذي النشاط الإجتماعي للفرد، كما يُعتبر هو ذاته الفاعل الاساسي في استمرارية هذا الوسط التقني، غير أن تجربة استخدام الانترنت والولوج إلى العالم الافتراضي، لا تخلو من احتمالية

الانزلاق السلس والتماهي معه في استجابة لاشعورية لحاجات عميقة يصعب على المستخدم ذاته استيعابها - في حينها على الأقل- إذ يكون منشغل بتقديم ذاته في أحسن صورها محاولا التمتع داخل العالم الجديد ليستمد منه إشباعاته النفسية.

أضحى مفهوم فعل الاستخدام في هذا السياق يطرح سؤالاً جوهرياً يتمثل في ما إذا بقي يحتفظ بكونه ذلك النشاط الواعي الذي يتولد حول الوسيط الاتصالي بتصميمه التقني و الأنشطة التفاعلية التي تتولد حوله، وهما عنصرين باتا هدفا لمصممي البرامج الالكترونية إذ تعتمد هذه الأخيرة إلى تلبية المتطلبات التجارية بخلق تبعية عضوية للمستخدم اتجاه التقنية تستهدف مساحات اللاشعور لديه لتجعله يعالج واقعه من داخل الوسط التقني وليس من خارجه في خطوة قد تسلب منه مساحات التحكم في إستخداماته، والتي أقرتها له دراسات الاستخدام منذ اربعينات القرن الماضي. فهل تستعيد بذلك التكنولوجيا حتميتها على الرغم من اشارة بعض الباحثين إلى أن تحقق الاستخدام المسؤول يشترط الحفاظ على مسافة الأمان التي تُبقيه مدركاً للحدود الفاصلة بين الأداة والوسط؟

6. خلاصة

فبالرغم من استمرار مثل هذا التساؤل إلا أننا تمكنا من رصد مجموعة من المفاهيم والمعايير تسمح بالفصل ما بين الواقع و الافتراضي وكيف لفعل الاستخدام أن يحدد موقع المستخدم وتحركه ما بين العالمين، فالعالم الافتراضي يقتضي منه تقديم ذاته في أحسن صورها بأقل تكلفة اجتماعية، مما يجعله يتماهي داخل معطيات رقمية قد لا تعكس ذاته الحقيقية وإنما تلبية لحاجات نفسية قد لا يعيها بصفة عقلانية، فيما يظل مرتبط بعالمه الواقعي الذي أضحى يدركه ويعالجه من داخل الوسط الافتراضي بطريقة لا شعورية وغير مسؤولة قد لا تدرك الحدود بين عالمين، أين يحاكي التنقل بينهما نقرة على فأرة الحاسوب أو عملية مسح على شاشة الهاتف الذكية.

الهوامش وقائمة المراجع:

* الذات الفعلية تذكر سوزان غرينفيلد أنها الواجهة التي نظهر بها في المجتمع الذي نتفاعل فيه، وهي مقيدة بمعايير وقيمه، نتصرف من خلالها كما هو منتظر منا، بعكس الذات الحقيقية التي هي الوجه المجرد من القيود الاجتماعية وتمثل حقيقتنا.

المراجع باللغة العربية:

- غرينفيلد سوزان (فبراير 2017)، تغير العقل: كيف تترك التقنيات الرقمية بصماتها على أدمغتنا، تر: ايهاب عبد الرحيم علي ، الكويت: عالم المعرفة، عدد 445.
- ستيفان فيال، تر: ادريس كثير (2018)، الكينونة و الشاشة: كيف يغير الرقمي الادراك، المنامة: هيئة البحرين للثقافة و الآثار.

المراجع باللغة الفرنسية:

- Andonova Yanita (2012), Parcours réflexif de la problématique des usages : une tentative de synthèse , Communication et organisation [En ligne], <http://journals.openedition.org/communicationorganisation/2960> , consulté le 10 mai 2019.
- BACHELARD Gaston (1993), La formation de l'esprit scientifique, Paris : éditions Vrin
- Badillo Patrick-Yves et Nicolas Pélissier (2015), Usages et usagers de l'information numérique , *Revue française des sciences de l'information et de la communication*[En ligne], 6 | 2015,, URL : <http://journals.openedition.org/rfsic/1448> consulté le 16 mai 2019
- Boenisch Gilles , Jacques Perriault (2012) , La logique de l'usage. Essai sur les machines à communiquer », Questions de communication [En ligne], 15 | 2009, URL : <https://journals.openedition.org/questionsdecommunication/1232>

consulté le 01 septembre 2018.

- Rojas Estrella (2013), réseaux socio numérique et médiations humaines, paris :Lavoisier
- Peraya Daniel (1998), Théories de la communication et technologies de l'information et de la communication un apport réciproque, Revue européenne des sciences sociales, Mémoire et savoir à l'ère informatique, XIV e Colloque annuel du Groupe d'Etude "Pratiques Sociales et Théories", XXXVI, 111, 171-188. url : <http://tecfa.unige.ch/tecfa/teaching/riat140/ressources/unil.pdf>
- GAGLIO, G. (2003). « De la pertinence des usages remontants dans le marché de la téléphonie mobile », Communication: Les rencontres de Cargèse(l'IESC) ,paris : Cerso-Université Paris IV Dauphine
- Denouel Julie And Co. (2014), Médias numériques et participation :Entre engagement citoyen et production de soi , Paris : Edition mare et martine
- Kaufmann Laurence. Qu'est-ce que le virtuel ? (Pierre Levy). In: Réseaux, volume 14, n°76, 1996. Le temps de l'événement II. pp. 171-174; consulté le 11/04/2018 https://www.persee.fr/doc/reso_0751-7971_1996_num_14_76_3720